تعليق على محاضرة الاستاذ الشايب

"لسنا معصوبي الأعين"

بقلم الدكتور يوسف ادريس

احييكم ايها السادة الزملاء ، وارى في اجتماعكم الموقر جذور وحدتنا العربية المتحررة وسيقانها ، واطمع في ازهارها وثمارها .

وبعد :

نحن جئنا من مصر في التاسع عشر من شهر ايلول (سبتمبر) ١٩٥٦ ميلادية والتقينا في سوريا في العشرين من نفس الشهر . جئنا من مصر التي تحيطها قوى الاستعمار الغاشم وتهددها ، والتقينا في سوريا التي تحيطها قوى الاستعمار وتهددها ، ونحن كتاب سوريا ومصر والعراق والاردن واليمن ولبنان جئنا نناقش قضايانا ، وقضايانا هي من صميم قضايا شعوبنا . نحن لم نأت ايها السادة لننفصل عن شعوبنا وقضاياها ، لقد جئنا لنزداد بها ارتباطاً . جئنا لنصنع شيئاً ، ولم نأت للنزهة ، ولم نأت للتمتع بمشاعدة بلودان . اما لماذا جئنا فالسبب بسيط . ان الحاجة هي أم الاختراع كما يقولون . واذا صح ، فالحاجة أم المؤتمرات ايضاً . ونحن احتجنا هذا المؤتمر فعقدناه . وان يلقي كل منا هنا آراءه الشخصية ، وان يعبر عن ذاته وما يراه ومالا يراه ، شيء قد يكون جميلا في حد ذاته ، ورائعاً ولكنه ابداً ليس ما نحتاجه . اننا لم نعقد هذا المؤتمر ، وفي هذا الوقت بالذات عبثاً ، ولا عقدناه لنغرق في بحوث تاريخية ، وندرس اصل الكون ومنشأ الخليقة ، وهل تطور الأنسان من قرد ، أم هي يتطور الانسان الى قرد ! لقد عقدنا هذا المؤتمر لحاجة ، وحاجتنا هي ان نتكتل لنواجه قوى الأستعمار التي تهددنا . حاجتنا ان الانجليز يتهيأون للانقضاض على مصر وسوريا ، حاجتنا ان اسرائيل تقتل المواطنين في الأردن ، حاجتنا هي الدفاع عن النفس . لقد عقدنا هذا المؤتمر وتجشمنا العناء لندافع عن انفسنا ، لندافع عن تراثنا وادبنا وحضارتنا وقوميتنا .

ودفاعنا عن انفسنا ان نتكتل ، ودفاعنا عن انفسنا ان نناقش فيما يفيد ، وان نتفق . وواضح اننا اذا سرنا على هذا المنهاج فلن نصنع شيئاً ، ويمكن ايضاً ان تحدث هوة بيننا وبين شعوبنا وقضايانا وان نجد انفسنا منعزلين هنا الى ان يحل الخريف ، ويأتي الشتاء ومن بعده صيف ، ونحن لا نزال نشرق ونغرب ونناقش كأهل بزنطة .

ايها السادة : اجل ، لقد جئنا لنتفق ، وجئنا لنتفق على ما يمكن الاتفاق عليه . اننا نمثل مختلف الاتجاهات الفكرية والفنية . ولن نتهي ابداً اذا اردنا ان نوحد بين اتجاهاتنا . ان بيننا اتفاقاً مبدئياً اننا كنا كتاب عرب ، ولقد اجتمعنا لنتفق على نقاط اكثر . ولقد ارسلتنا شعوبنا وحكوماتنا ، لا ليظهر كل منا قوته وعضلاته ويرفع رأسه بلده ، لا ، لسنا في سوق عكاظ ، ولسنا هيئة امم ، ولسنا من بزنطية ، نحن هنا في بلودان ، كتاب عرب ، جئنا المحن تحيط بشعوبنا ثم تحيط بنا ، وقد جئنا لنتقوى ، وجئنا لنناقش ونتفق

واعترف ، اني استفدت كثيراً من هذا العرض الرائع الذي تفضل به الاستاذ فؤاد الشايب ، والذي صور لنا تاريخ انبثاق فلسفات تحاول ان تتفهم مشاكل عصرها ، وتجد الحلول الملائمة لها . لقد وضح لنا من محاضرة الاستاذ الشايب ان هوبز وروسو كانا يمثلان قمة الصراع في عصرها خير تمثيل ، وواجبنا ايضاً ، ان نكون مثل هوبز وروسو والاساتذة الكبار ، واجبنا ان نمثل مشاكل عصرنا ووقتنا خير تمثيل . لقد جلست استمع الى محاضرة عن الاديب والدولة ، فاذا بي اسمع كل شيء الا ما يختص بعلاقتنا نحن الادباء العرب ودولنا . في تسعة اعشار المحاضرة حدثنا الاستاذ الشايب عن العلاقة بين الفرد والدولة . وليته حديث عن الفرد والدولة بوجه عام ، ولكنه حديث عن العلاقة بين الفرد والدولة كما يراها ثلاثة فلاسفة او اربعة اصطفاهم الاستاذ المحاضر وانتقاهم وفضلهم على غيرهم وجعل منهم انبياء ، وجعل من كلامهم حكماً عليا ليس وراءها حكمة . وفي العشر الباقي لم يدرس لنا الأستاذ المحاضر العلاقة بين الاديب والدولة ايضاً ، ولكنه بلور كلامه في نصيحة اطلقها في وجه اناس قال لهم : اتركوا الملهم لاهامه .

وكان من واجبي ان اعتبر الجزء الأكبر الاول من المحاضرة خارجاً عن الموضوع والا اناقشه ولكني رغما مني لم استطع ان اكبح جماح بعض الافكار التي ساورتني وانا اسمع المحاضرة ثم وانا اقرأها .

كل ما خرجت به من عرض الاستاذ الشايب ان هناك شيئاً هائلا اسمه الدولة وهناك شيئاً اسمه الفرد ، وهناك خلافات ومعارك مستمرة بين الدولة وبين الفرد ، وان هوبز وروسو وسبنسر وآدم سميث وكارل ماركس وكارليل قد حاولوا وضع شروط للصلح ، وفشل الصلح في كثير من الاحيان ، ولا تزال المعركة مستمرة الى الآن .

اسمحوا لي ايتها السيدات والسادة ان اسأل الاستاذ الشايب اية دولة يعنيها ، واي فرد يعنيه ؟ وهل نحن كتاب الانسانية جمعاء ، قد انعقدنا في مؤتمر حضره المفكرون من افلاطون الى رسل ، ومن ميرودوتس الى الاستاذ المحاضر نفسه لوضع الأسس للعلاقة التي يجب ان تكون بين الفرد والدولة ؟

ابداً . لسنا كتاب الأنسانية جمعاء . نحن كتاب عرب . ومؤتمرنا هذا محدود بزمانه ومكانه ، والمشاكل التي علينا ان نجابهها ، ولو كان الاستاذ فؤاد الشايب قد عرض انا تاريخ العلاقة بين الفرد والدولة بوجهة نظره لاستطعنا مناقشته . ولكنه عرض لنا تلك الاراء وتركنا احراراً نختار منها ما نشاء . ليس هذا فقط ، بل ان الاستاذ المحاضر لم يتعرض كما قلت لعلاقتنا نحن الكتاب العرب بدولنا . العلاقة التي قامت في الماضي ، والعلاقة القائمة الآن ، والعلاقة التي يجب ان تقوم .

ان الاستاذ الشايب قد افترض وجود دولة خيالية ما ، وفرد خيالي ما وراح يناقش العلاقة بينهما ، ونسي في خضم حماسه لمناقشته تلك العلاقة ان هناك دولا ودولا وادباء وادباء . نسي ان هنالك دولا باغية مستعمرة تفتح افواهها لتبتلعنا نحن الادباء العرب بشعوبنا وتراثنا القومي واراضينا ، وان هناك دولا اخرى صاحبة حق تدافع عن شعوبها واراضيها ضد العدو الغاشم . ما موقف الاديب من الدولة الباغية ، وما موقفه من الدولة المدافعة ؟ ما موقفنا نحن الكتاب العرب من الدول الأستعمارية ذات المطامع وما موقفنا من دولنا المدافعة عنا ؟ لم يقل لنا الاستاذ الشايب شيئاً عن هذا .

ثم بأي منظار ينظر الاستاذ الشايب الى العلاقة بين الاديب والدولة . هو فترض دولة ثابتة لا تتغير ، وافترض فرداً ثابتاً لا يتغير ، ودرس العلاقة بينهما واورد لنا آراء بعض الفلاسفة في تلك العلاقة . ومن المعروف ان الاشياء تنمو وتتغير على الدوام . وان الدولة بشكلها الحالي مختلفة تماماً عن الدولة ايام ارسطاطاليس ، والفرد ايام سبارتاكو مختلف تماماً عن الفرد ايام ثهتلر . الدولة في نمو دائم والفرد في نمو دائم وتغير دائم ، فليس هناك شي ثابت اسمه الدولة ، ولاشيء ثابت اسمه الفرد ، وليست هناك علاقة دائمة ثابتة اسمها العلاقة بين الفرد والدولة . الدولة تتغير والفرد يتغير وكنه العلاقة بين الفرد والدولة في تغير دائم . ثم من قال ان الليفياتان هو سفر الاسفار وتوراة العصر ومورد كل مثقف فيما تلا من عصور ؟ وكيف يورد لنا الأستاذ الشايب التاريخ على انه تاريخ فلاسفة ومفكرين ، والتاريخ — كما هو معروف — تاريخ الصراع بين قوى عديدة متشابكة ليس اقواها قطعاً الفلاسفة والمفكرون ؟

وليس هذا كل شيء . فلقد أثار لنا الاستاذ المحاضر نقطة ليس هذا مجال مناقشتها على اية حال . قال ان الحقيقة والجمال قيم غير اجتماعية . ولم يثر هذه النقطة فقط ولكنه طلب منا ان نسلم معه بها . وكيف نسلم معه بها ؟ كيف نسلم ان العسل حلو بغير ان نتذوقه ، وان هناك جمالا بغير الانسان وحقيقة اخرى غير تلك التي يراها ويحسبها ويرصدها تحت الميكروسكوب ؟ اذا سلمنا معه بهذا كان علينا ان نسلم ايضاً كما يقول بأن تجربة الخطأ والصواب يجب ان تستمر وراء حدود الزمان والمكان . فاين تجري تلك التجربة ، واي بقعة في العالم نختارها بلا مكان او زمان لنجري فيها تلك التجربة . اني عالم الارواح نجربها ؟

ثم من قال « ان الكتاب والمفكرين هم العزاء للعالم المادي المسكين المنهار في دوامة الفرق والانتحار ، ينظر في الليل البهيم الى نجوم السماء » .

هل العالم يا استاذنا غارق فعلا او هل كان غارقاً فعلا في دوامه الانتحار والظلام ؟ ومن اين جئنا نحن الكتاب والمفكرين ، وهل نحن جان ام عفاريت ام كائنات فيها قدرة آلهية نستطيع بها ان نخترق حجب الظلام ونلجو من الفرق نأتي لنعقد مؤتمراً في بلودان ؟

ويقول الاستاذ « لا بد ان ينظر المجتمع باستهجان الى الاعمال الفنية التي تعبر عن قيم جمالية » . فمن اين جاء بهذا اليقين ؟ وكيف يؤكد ان المجتمع لا بد ان يقرر احد امرين : اما ان يعتبر هذا النشاط مؤذياً وهداماً وغير خلقي او الاعتراف بان نشدان الجمال هذا والحقيقة لا يمكن ان تقاس بمقاييسنا الاجتماعية ، ولابد ان نوضع فرق مستوى الذات والبشر والموجود وتقدس وتعبد ؟

لقد وضع الأستاذ المحاضر قضية ثم راح يناقشها على اعتبار انها الحقيقة . وليست هي الحقيقة ايها السادة . الواضح الآن اننا لسنا في عصر جاليليو ، واننا لا نحرق المفكرين ، ولا نضرب الكتاب . ان الاستاذ المحاضر يفترض ان العالم لم يتقدم من ايام الاسكندر الى الآن ، وانه لا يزال ينظر الى الفن والادب والابتكار على انه الحاد وكفر ولوثة من لوثات الجن والشياطين . واضح ايها السادة ان الفنانين والمفكرين في عصرنا هم القادة ، هم المقربون المبجلون الذين ينالون المجد والشهرة وتفتح لهم الابواب .

يقول الاستاذ المحاضر : اتركوا الملهم لالهامه .

وهنا بيت القصيد كما يقولون . عند هذه النقطة كان يجب على الاستاذ المحاضر ان يتوقف طويلا ، ويشرح لنا رأيه . كيف نترك الملهم لالهامه ؟ كيف نترك نيلسون يقول بتفوق العنصر الجرماني وسموه ، كيف نترك عالماً يحضر لافظع انفجار هيدروجيني . كيف نترك اديباً ينادي بسحق كل القيم ويمسح كل ما وصلت اليه الانسانية من روائع في الخلق والمعرفة ؟ . وكيف نطرد عالماً لأنه ابى ان يدنس يديه في مؤامرة لمحو الجنس البشري ؟

ثم الى من يتوجه الاستاذ المحاضر بقوله : اتركوا الملهم لالهامه ؟ ومن هو الملهم وهل هو الاديب او العالم او الفنان او المجنون ؟ وباي مقياس نقيسه ، وهل هو الملهم الصيني او الياباني ام الهندي ، وهل نقول هذ الاسكندر ام فتلر ام لايدن ؟

هنا كان يجب ان يتوقف استاذنا المحاضر .

واني اتوقف هنا .

لقد افترض الاستاذ الشايب وجود تناقض دائم مستمر بين الدولة ، اي دولة ، وبين الفرد ، اي فرد . لم يشرح لنا سبب وجود هذا التناقض ، ولا اشار لحالة واحدة يمكن ان ينعدم فيها هذا الصراع ويتوقف . الصراع له اسباب : الاديب ينادي باشياء والدولة تنادي باشياء .. ومن هنا نشب الصراع . ولكن . وماذا يحدث لو اتفقت الاشياء التي ينادي بها الاديب بتلك التي تنادي بها الدولة هل لابد من حالة كتلك من تلمس اسباب خلاف ، واستجداء الاسباب انلم توجد .

ان الدولة في عصرنا الحاضر لم تعد دولة واحدة . لقد اصبحت عدة دول . هناك دول باغية مستعمرة تستمد وجودها من الاعتداء على حقوق الآخرين وسلبهم مطالبهم . وهناك دول يحكمها شعب مباشر ، لا يستغل احداً ولا يسيطر على احد . وبين هذه وتلك توجد دولنا ، الدول ذات الحكومات الوطنية التي تطمع في التحرر الكامل والاستقلال . فماذا يكون موقف الاديب من تلك الدول ؟ وهل دور المفكر او الاديب ان ينشب اظافره في اية دولة تظلله ، وفي اية جماعة بشرية يكون عضواً فيها بحيث اذا لم ينشب اظافره عد غير مالك لحريته وغير مزاول لها ؟

كان من الواجب على الاستاذ الشايب ان يوضح لنا هذا ويوضح لنا بالذات موقفنا نحن الادباء العرب من دولنا ، من دول كمصر مثلا انشأت مجلساً اعلى لرعاية الفنون والآداب ، وهو ليس مجلساً لتوجيه الفنون والادب كما قد يظن البعض ، هو مجلس لوضع كل الامكانيات امام الادباء والفنانين وتركهم ينتجون دون اي تدخل من الدولة . ورحبت ايضاً بتكوين جمعية الادباء التي انشئت كما نص في قانونها وهدفها على صيانة حقوق الادباء والعمل على كفالة الحرية الفكرية للاديب وتنظيم علاقات الادباء مع الناشرين واظهار الادباء الناشئين والعمل على نشر الادب المصري في النطاق العالمي .

الدولة في مصر اذن لا تتعرض لحرية الاديب في قول ما يعتقده ويراه ، ولكنها تكمل له ان يعيش ويوجد ليستطيع ان يقول ما يعتقده ويراه .

ان موقفنا هنا ان ندافع عن الحرية ونفرضها ، ان الحرية للاديب كالاكسجين للكائن الحي . لا ادب بلا حرية . ولا حرية بلا مسئولية . ولكي نكون احراراً مسئولين يجب ان نحدد موقفنا تماماً من الدول الباغية التي تعتدي علينا ومن الدول التي تمدلنا يد الصداقة ، ومن دولنا التي تدافع عنا وعن تراثنا وادبنا .

اجل ايها السادة ! الموضوع هو الاديب والدولة . والسؤال هو ما موقفنا نحن الادباء من الدولة دولتنا ، وما موقفنا نحن الادباء من الدولة الباغية المعتدية . اما ان نبحث في اصل العلاقة بين الفرد والدولة فسنكون حينئذ كالمثل الذي جاء به الاستاذ الشايب نفسه ، سنكون « كالجواد الاصيل الذي ربطوه في بئر مع بغال تدور لتمتح الماء من البئر ، وعصبوا عينيه حتى لا يرى في سيره الذي لا ينتهي انه يدور حول نفسه ، ولا يسير الى جهة . »

ومن حسن الحظ ايها السادة اننا لسنا معصوبي الاعين .

ومن حسن الحظ ايها السادة اننا لن نسمح لاحد ان يعصب عيوننا ، ولن نسمح لانفسنا ان ندور حول أنفسنا .

يوسف ادريس